



جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

المادة : نظرية الأدب

المرحلة : دكتوراه أدب

عنوان المحاضرة

المنهج التاريخي

أ.د. نرجس خلف أسعد

المنهج التاريخي

للتاريخية معنيان عام وخاص ،العام ينظر إلى الفرد في علاقته بالتطور البشري ، مما يقتضي دراسة الأديب أو الحركة الأدبية العامة تبعاً للتطور الفني والاجتماعي والسياسي والديني ، وترجع الأولوية في الاعتبار التاريخي إلى (هيغل وشبنكلر) .

أما المعنى الخاص فهو ارتباط الحدث بالزمن كسلسلة منظمة حسب نسق زمني ، أو دراسة أعمال أدبية معينة بحسب تسلسلها التاريخي ، فمن الصعب معرفة تاريخ الأدب من دون معطيات نقدية ، فضلاً عن أهمية تاريخ الأدب بالنسبة للناقد ، فالناقد الجاهل بالعلاقات الأدبية التاريخية يضل في أحكامه الأدبية فلا يستطيع تمييز الأصل من المنقول . ويحدد الناقد علاقته بالنص الأدبي الذي يهتم به بشكل خاص ويستعين بالتاريخ ومؤثرات العصر لاستبطان النص ، ويجعل التاريخ في خدمة النص الأدبي وليس العكس . وينتزع الناقد الظاهرة عبر العصور المتعاقبة ويستعين في دراسة النص على ما بين يديه من وثائق . وينقد النص في حدود عصره لكشف أبعاده لا أن يسحب عليه الناقد ذوق عصره هو ، وإنما يمكنه الاستعانة بمعطيات عصره لكشف أبعاد النص وغوامضه .

طرح (هيغل) معيار الأصالة الفنية ، ورأى أن الآثار الفنية ليست انعكاساً للفكر الاستدلالي (الحضاري) ، وإنما للفن خاصيته المستقلة ، وهو ليس نشاطاً ثانوياً ، وإنما حالة الفكر الأولى ، والفن ليس انعكاساً أو لعباً وإنما تعبير عن المشاعر العميقة للأمة ، إن للأثر الفني دلالاته الذاتية ، وكلما ازداد انجازه جدة وأصاله ، ازداد قدرة على التعبير .

أما (هيبوليت تين) فقد تأثر تأثراً كبيراً بالمفهوم التاريخي الجمالي لهيغل ، وإعادة الآثار الفنية والأدبية إلى موضعها من التاريخ ، إلا أن التاريخ المقصود عند هيغل هو التاريخ الجدلي للفكر ، أما بالنسبة لـ (تين) فالمقصود هو المجتمعات التي ينتج تتاليها من قوى مادية ، ووضع الأثر الفني أو الأدبي في مجموعة يرتبط بها الأثر وتفسر هي الأثر . والمجموعة ، هي إنتاج الفنان نفسه والجماعة الفنية التي ينتمي إليها ، والمجتمع الذي انتجها ، وحينما نسعى إلى فهم أثر أدبي أو أديب أو مجموعة من الأدباء فلا بد من أن نتصور بدقة الحالة الفكرية والأخلاقية العامة التي ينتسب إليها الأثر أو الأديب أو الأدباء ، فهنا يكمن التفسير الأخير ،

وهنا يكمن السبب الأولي الذي يحدد ما سواه ، ويؤمن (تين بالمناطق الفنية ايمانه بالمناطق النباتية فتلك مثل هذه تحتاج إلى مناخ معين ، فالفنون تظهر وتختفي في الوقت الذي تظهر فيه بعض الحالات الفكرية والأخلاقية التي ترتبط بها تلك الفنون ، فقد ظهرت (التراجيديا) اليونانية مع استقلال المدن اليونانية واختفت معها ، وتفتح فن الرسم الهولندي في اللحظة التي فيه هولندا أكثر البلدان الأوروبية ازدهاراً ، وآل إلى الزوال في القرن الثامن حينما انتقلت انكلترا إلى المرتبة الأولى .

اعتمد تين في نظريته على ثلاثة أسس : (الجنس ، و البيئة ، واللحظة الزمنية) ، فالجنس هو : الاستعدادات الفطرية والوراثية التي تولد مع الإنسان وتتصل عادة بعلاقات في المزاج ، وبناء الجسم ، وهي تختلف بحسب البشر .

ويؤكد تين في نظريته قائلاً : " إن الأثر الأدبي ليس مجرد لعب بالخيال أو نزوة منفردة لشخص ما ، ولكنه نسخة من العادات المحيطة ورمز لحالة فكرية معينة ، وعليه فإنه عن طريق الآثار الأدبية تصبح الإحاطة بالكيفية التي كان عليها الإنسان يحس ويفكر منذ عدة قرون " وما يلبث تين حتى يبين بأن الإنسان وليد ظروفه وأن البحث عن الفروق بين الأجناس متى بقيت في موطنها الأصلي ، أما إذا اندمجت الأجناس فالحكم يبقى للموطن الذي احتضن هذه الأجناس .

فالظروف هي ما يكيف الجنس البشري ويطلع انتاجه ويسم فكره وكل تقلب أو تغيير قد يصيب البيئة أو الوسط فهو يترك بصماته على الفكر والإنتاج الفكر بصفة خاصة ، ولكن يجب عدم الاعتماد على المؤثرات الخارجية التي تطلع إنتاج الإنسان الفكري بل يجب البحث عن المؤثرات الداخلية التي تتراكم بصورة يمكن معها إدراك طبيعة شعب معين في لحظة معينة بعينها باعتبار أن تلك اللحظة هي خلاصة لكل الافعال والأحاسيس السابقة .

وأكد تين على العنصر الثاني من نظريته ، (الوسط أو البيئة) التي يعيش فيها الإنسان ، لأن الإنسان ليس معزولاً في العالم ، إن الطبيعة تغلفه والناس الآخرون يحيطون به ، فللأحداث السياسية مفعولها ، كما تترك الأحداث الاجتماعية والثقافية أثرها وبصمتها على المبدع .

أما العنصر الثالث في نظريته فهو (الزمن أو العصر أو اللحظة الزمنية) : فالزمن حصيلة القوى الداخلية المعبر عنها بالجنس ، وبالقوى الخارجية المتمثلة في الوسط وهذان العاملان

يقومان بدفع الإنسان إلى الإنتاج الفكري ، وهو إنتاج يتراكم باستمرار ويفيد الإنسان من هذا التراكم ليصوغ شيئاً أعلى قيمة مما هو موجود .

ظهرت دراسة السيرة الأدبية في إطار النقد التاريخي ، كأن يدرس الناقد سيرة أديب معين ، وتحتاج هذه الدراسة إلى المعلومات الكثيرة والتفاصيل الدقيقة المتعلقة بحياة الأديب ، وعلى الناقد ألا يهتم بتكديس هذه المعلومات قدر اهتمامه بها للكشف عن جوانب شخصية الأديب ومنابع إبداعه ومدى انسجامه مع عصره وابتعاده عنه وعوامل شهرته في عصره أو خفوت ذكره ، والقضية الأساسية التي تهدينا إلى نتاج الأديب إنما توجد في ذاته وحياته وشخصيته . وقد دفع الناقد سانت بيف (1804 / 1869 م) النقد التاريخي إلى أمام في أحاديثه المعروفة بـ (أحاديث الاثنين ، وأحاديث الاثنين الجديدة) قام فيها بدراسة الأدباء دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم ببيئاتهم وأممهم وأسرههم وعصورهم وتربيتهم وثقافتهم وتكوينهم الجسماني والنفسي والعقلي ، وعلاقاتهم بأصدقائهم ومعارفهم وما يتصل بهم كمن عادات وأفكار ومعتقدات ومعرفة نجاحهم واخلقهم ، وعوامل قوتهم وضعفهم .

يحاول سانت بيف أن يتعرف على الخصائص المشتركة التي تجمع بين الأدباء ، وما يربطهم من حوافز زمانية ومكانية لكي يسبر أغوارهم ويصنفهم حسب أنماطهم الفنية ، مع دراسة الجوانب المميزة لشخصياتهم ، وقد ساعد توزيع (سانت بيف) الأدباء على شكل فصائل إلى خلق المدارس الأدبية ، لأن المدرسة في واقعها مجموعة من الخصائص الأدبية التي تشترك فيها طائفة أو طوائف من الأدباء .

حاول بروننير (1849 / 1906 م) أن يطبق ما كتبه دارون عن علم الأحياء في كتابه (أصل الأنواع) وما حدده فيه من نظرية للتطور محاولاً أن يجسد النظرية في الأنواع الأدبية وتطور لإثبات أن الشعر والنثر ينقسمان إلى فصائل ، وأن كل فصيلة أدبية تنمو وتتوالد وتتكاثر متطورة من البساطة إلى التركيب في أزمنة متعاقبة حتى تصل إلى مرتبة النضج وتنتهي عندها وتتلاشى . اختار لتطبيقاته ثلاثة أنواع أدبية هي : المسرح ، والنقد الأدبي ، والشعر الغنائي ، مصوراً تطورها باجتماع دوافع تاريخية تستمد من الظروف والبيئة والعناصر الاجتماعية . وذهب إلى أن الشعر لا يتطور عن أصل من نوعه مماثل له أو متحد معه ، وإنما نما وتطور عن نوع مغاير له فني فيه هو الوعظ الديني ، الذي كان مزدهراً في فرنسا في القرن

السابع عشر ، ومر به قرن كامل وهو يعاني من سكرات الموت ، ثم حيي من جديد في الشعر الغنائي الوجداني . ونسي برونثير أن هناك أنواعاً أدبية لا تموت وإنما تتخلد ومثال ذلك الشعر الغنائي في عصر ما قبل الإسلام . ونجد في نظريته الكثير من المبالغة على الرغم من بنائها على أساس نظري .

إن النقد عند برونثير هو الحكم على الأثر الأدبي ، ويحكم عليه باعتباره ينقل جوهرًا هو الجوهر الأدبي وهدفه أن يأتي نقده موضوعياً ، معارضاً النقد الانطباعي والذوق الفردي وذلك باقامة علم نقدي على أسس موضوعية ، وغابية النقد عنده الحكم على الاعمال الأدبية وتصنيفها وشرحها ، ووظيفة الشرح ، تحديد العلاقات بالنسبة للأثر بالتاريخ العام للأدب وبالقوانين الخاصة لفنه ، وبالبيئة التي ظهر فيها وأخيراً بكاتبه .

إن غاية نظرية التطور عند برونثير توضيح الكيفية التي تولد فيها الأنواع الأدبية وما هي عوامل الزمن والمكان التي اشرقت على ميلادها ، وكيف تتميز تلك الأنواع وتتناوب ، وكيف تنمو وتتطور كما يتطور الكائن الحي ، كيف تأخذ صورة عضوية بأن تتحي كل ما يضر بها ، وعلى العكس تهضم كل ما يخدمها ويغذيها ويعينها على النمو ، ثم كيف تموت ، وما هي عوامل الفقر والانحلال التي تصيبها ، وكيف يؤدي التطور إلى ميلاد نوع جديد يجمع عناصره من بقايا نوع سابق ، وهذا هو مفهوم الدراسة على أساس نظرية التطور ، وذلك هو هدفها .

المنهج التاريخي والنقد العربي الحديث

لقد سار كثير من النقاد العرب في نقدهم على خطى المنهج التاريخي وفي مقدمتهم طه حسين في كتبه عن أبي العلاء وفي (حديث الأربعاء ، ومع المتنبي) واتجه العقاد هذا الاتجاه في كتبه (ابن الرومي حياته وشعره ، شاعر الغزل ، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) وتبنى أمين الخولي في كتابه (إلى الأدب المصري فكرة ومنهج " النظرية الاقليمية ") وعاد إلى نظريته الاقليمية في كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) وكتب عز الدين إسماعيل في النقد التاريخي في كتابه (الأسس الجمالية في النقد العربي) وكذلك محمد نجيب البهيتي في كتابه (تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري) .

وسار أحمد أمين في إطار المذهب التاريخي في دراساته التاريخية (فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام ، عصر الإسلام) وفي كتابه الأدبي (قصة الأدب في العالم) .

ولعل أفضل دراسة نقدية عربية حاولت تطبيق اتجاه (تين) في النقد التاريخي ، على الأدب العربي كتاب عباس محمود العقاد (ابن الرومي حياته وشعره) وخاصة في الفصل الذي خصه لدراسة عبقرية ابن الرومي وهو الفصل الرابع من الكتاب ، مؤكداً على أصل ابن الرومي اليوناني في حديثه عن أصله ونشأته

ويقول العقاد في حديثه عن مزاج وإخلاق ابن الرومي : " هنا شاعر ينتمي أبوه إلى الروم وتنتمي أمه إلى الفرس ، ويدين هو بدين العرب وينتسب في ولائه إلى أبناء النبي العربي " وعلل العقاد التصوير الساخر الذي برع فيه ابن الرومي على جنسه اليوناني .

أما طه حسين فيعد من أوائل النقاد التاريخيين في النقد العربي الحديث ، فقد جمع في كتابه (حديث الأربعاء) الدراسات الخاصة بالأدب الجاهلي والأدب الإسلامي في الجزء الأول ، والدراسات الخاصة بالأدب العباسي في الجزء الثاني ، والدراسات النقدية الخاصة بالأدب الحديث في الجزء الثالث ، وقد سار في كتابه هذا على منهج (سانت بيف) في كتابيه (أحاديث الإثنيين ، أحاديث الإثنتين الجديدة) .

ابتدأ طه حسين بشعراء (المجون) في العصر العباسي واتبع ذلك بدراسته لغزل عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي ، وشعر الغزل وشعرائه ، وذلك ما بين عامي (1922 - 1925) من أجل إرساء مذهب نقدي جديد يشاكل نمط المذهب التاريخي النقدي في أوروبا .

لقد أراد طه حسين من دراسته للصراع بين القديم والجديد في الأدب العباسي إلقاء الضوء على الصراعات التي خاضها ضد أنصار القديم في عصره من ناحية وإرساء قواعد المذهب التاريخي التي درسها في فرنسا من ناحية أخرى .

أثار طه حسين قضايا مهمة في الدراسات النقدية ، مثل قضية الشك في كينونة (قيس بن الملوح) ومسألة تمثيل الشاعر لعصره ، كما فعل في إبراز عمر بن أبي ربيعة وأبي نؤاس على أنهما يمثلان عصريهما ، واعتمد على تمثيل الشاعر عصره في شعره ، وإذا لم يظهر هذا التمثيل في شعره فإنه يشكك في شخصية الشاعر وشعره ، يقول طه حسين في كتابه حديث

الأربعاء " ولا بد للباحث المحقق الذي ينتهي به البحث إلى إنكار قيس بن الملوح والغرض من شخصية قيس بن ذريح وجميل بن معمر وعروة بن حزام أشياء لا أشخاصاً ، أو بعبارة أدق ، أريد أقيم مكانهم شيئاً واحداً هو فن القصص الغرامي الذي أعتقد أنه ظهر ، أو على أقل تقدير قوي وعظم أمره أيام بني أمية " .

وقد سعى ط حسين إلى إبراز عمر بن أبي ربيعة ممثلاً للعصر الأموي ، وأبي نؤاس ممثلاً للقرن الثاني الهجري ، وازدهار العلوم في زمن الرشيد ، والجاحظ ممثلاً للقرن الثالث الهجري ، وازدهار العلوم والمعارف ، ليتوصل إلى التشكيك في الشعر الجاهلي على أنه لا يمثل عصره " .

اهتم طه حسين بالصدق الفني مما دفعه إلى اصطناع منهج سانت بيغ في البحث والاستقصاء في إطار المنهج التاريخي ، في محاولة طه حسين لاستظهار عوامل التطور المادي في المجتمع الإسلامي ، واحتكامه في دعوى الصدق إلى مدى استجابة الشعراء على ذلك العهد لتلك العوامل والنزول على مطالبها في القول والتعبير ، وهذا المعيار من معايير الصدق التي اعتمدها طه حسين في نقده ، كغيره من المعايير التي تزوج حياة الشاعر أو عناصر شخصيته ، أو ما شابه ذلك من الأمور وبين شعره وانتاجه قدر المستطاع ، فنراه في دراسته لشخصية الوليد يستظهر حياته ونفسيته وشعره ، ويحكم له بالصدق لتطابق شعره مع حقيقته .